

الإنسان- حين يحمله البحر

حمزة محمد توفيق الحلبي

فلسطين- غزة

لقد كان من المملّ جدًّا سماعَ خطواتِ الموظّفين الراحلين صباحًا إلى عملهم، وهمّماثُ طلاب المدارس في الطريق الطويل، وطَرَقاتُ الحديد في المعامل البسيطة، وصوتُ أم كلثوم من المقهى القريب من بيتنا.. وكان مملاً، شروقي كلّ صباحٍ مع الشمس، وخروجي من البيت لدوامي الجامعي، تاركًا وعيي ورائي، نائما في البيت، فقلد كنتُ أنسى وجبة الإفطار؛ لأن عادتي الاستيقاظ متأخرًا. ولكنّ صباحًا ما، أيقظني بكاملٍ وعيي، وأخرجني من رتابةٍ وقتي إلى هالةٍ من العدم، أو حالةٍ من العبثية، فكُرتُ حينها أنه طالما كان الإنسانُ إنسانًا، بما هو في ذاته، وطالما كان العرقُ، والفكرُ، عَرْضًا مما يطرأ على الإنسان، فكيف يمكن أن يطغى العَرْضُ على الذات؟ وكيف يمكن أن ألغي وجودَ الآخرين لمجردِ طاري في دماغي! كان عليّ أن أدركَ حينئذٍ، أنّ كل ما يحتاجه الإنسان اليوم، هو الإنسان، فقط؛ لأنه الحقيقة الوحيدة التي لا نحتاج أن نقاتل من أجلها، فهي المشتركُ الراسخُ بين كل البشر.

نشأتُ وأسرّتي، في بلدةٍ صغيرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كانت المدينة تبدو ككائنٍ عجوز، أرهقه الزمن، يُقاوم الشيوخةً بسكّانٍ يملكون طاقةً الشباب، وأحلام الطفولة، رغم أن كل شيء فيها يشيخ بسرعة. كنا نعيش على مقربة من الشاطئ، لكننا لا نراه. البحر، ذلك الكائن الأزرق اللامتناهي، صار حدًّا، لا حلمًا. حاجزًا من الأسلاك لا مرآةً للسماء.

كان والدي يزرع فينا دائمًا حبّ الناس، كل الناس. كان يقول:

"يا بني، لو اجتمع أطفال غزة وتل أبيب وبيروت ونابولي في ساحة واحدة، ولعبوا، لما احتاج أحد لكتابة اتفاقية سلام."

لم أكن أفهمه وقتها، لكن في ذلك الصباح الغريب الذي ذكرته، أدركت أن للعب صدّي، مثل الحرب تمامًا، لكنه لا يُخيف.

كبرتُ، وكبر البحر معي، فكننتُ أراه في صغري أقرب، أكثر حميمية، ثم بدأ يبتعد.

لم تكن المسافة بيني وبينه تُقاس بالأمتار، بل بالخوف، بالخسارات الصغيرة التي تراكمت فوق بعضها، كطبقات الحجارة القديمة في سور المدينة.

كان في بيتنا باب خشبي قديم يُطلّ على زقاق ضيق، وكان أبي يفتحه كل صباح وهو يتمتم بشيء من القرآن.

كنت أسأله: "لماذا تتمتم دائماً وأنت تفتح الباب؟"، فيقول:

"حتى لا يدخل علينا غير السلام."

كنتُ أظنه يُبالغ، لكنني الآن أفهم. من يريد النجاة هنا، عليه أن يفاوض الباب كل صباح، ويقنعه ألا يفتح على رصاصة أو قذيفة.

في سنّ الرابعة عشرة، رأيتُ أول صديق لي يُقتل. كان اسمه ياسر، وكان يشبهني حد التطابق في كل شيء، حتى في أحلامه الصغيرة. كان يريد أن يصبح لاعب كرة قدم، يلعب في نادٍ أوروبي، ويُرسل لنا فيديوهات من الملاعب الخضراء. لكن بدلاً من أن نشاهد أهدافه، شاهدنا جنازته.

لا أذكر كيف بكيت. كل ما أذكره أنني لم أنطق بعدها لأيام، وكأن صوتي قرر أن يُعلن الحداد. ومنذ تلك اللحظة، صار داخلي صوتان:

واحد يريد أن يصرخ، أن ينتقم، أن يُحطم كل شيء، وآخر يريد أن يسير عكس النار، ويزرع شيئاً لا يُحرق. ظلّت هاتان القوتان تتصارعان داخلي لسنوات.

في إحدى الليالي، تحدثت إلى أستاذ جامعي كان يُدرّسنا "النزاعات الدولية". كنت قد سألته:

"هل يُمكن للعدالة أن تتحقق بدون الانتقام؟"

فقال:

"العدالة ليست انتقاماً من القاتل، بل أمانٌ لمن تبقى."

كان هذه الجملة فتحت نافذة في رأسي. بدأتُ أرى العالم بطريقة مختلفة. كلّ من كان ضدي، لم يعد عدواً، بل ضحية أخرى لرواية كاذبة.

قررت أن أكتب. لا ككاتب كبير، بل كشخص يريد أن يفهم. بدأتُ أدون تأملاتي:

لماذا نخاف من المختلف؟

كيف يمكن لفكرةٍ واحدة أن تقتل؟

وهل الكتابة تُنفذ، أم تُوجّل الانفجار فقط؟

في الجامعة، التقيت بفتاة تُدعى مريم، كانت تدرس الأدب الفرنسي وتحلم بالترجمة والعمل في مؤسسات السلام. كانت تؤمن أنّ الكلمات قادرة على إيقاف رصاصة، إن كُتبت في الوقت والمكان المناسبين.

قالت لي مرةً، ونحن نراقب البحر من خلف القضبان:

"أتعرف؟ هذا البحر نفسه يلامس إيطاليا وإسبانيا وتركيا... هل تظن أنه يعرف أن عليه أن يختار طرفاً في الحرب؟"

ضحكتُ حينها، لكنها لم تبتسم. كانت تؤمن حقاً أن البحر هو المعلم الأول للسلام؛ لا يقاتل من يعُبره، بل يحملهم جميعاً. هذا الاتساع هو ما كانت تفتقده هنا.

في مشروع جامعي مشترك، بدأنا نراسل طلاباً من جامعات متوسطة مختلفة: من أثينا، طنجة، ومرسيليا. تبادلنا القصص والموسيقى، وبدأنا نكتشف أننا نعيش ذات القلق، ونسأل الأسئلة نفسها: ما معنى أن نكون من هذه المنطقة؟ هل من المقدر لنا أن نحمل إرث الحروب إلى أبنائنا؟ أم يمكننا، فعلاً، أن نكسر السلسلة؟

أحد هؤلاء الطلاب كان يُدعى ميشيل، من مرسيليا. كتب لي في إحدى الرسائل: "حين أسمع عن غزة، أفكر في الخوف. لكن حين أقرأ رسائلكم، أفكر في الأمل. أنتم تصنعون صورة أخرى للمدينة، صورة تشبهنا جميعاً."

تلك الكلمات كانت كافية لأغَيّر مجرى دراستي، وتحولت من العلوم السياسية إلى الأنثروبولوجيا الثقافية، فقد بدأت أؤمن أن دراسة الإنسان كإنسان، قبل هويته وأعلامه، هي المفتاح الحقيقي للسلام.

مات والدي في آخر عدوان، كان قد خرج لإحضار الخبز. كانت جنازته صامتة، كما أحبّ دائماً، وقال الإمام كلمة لم أنسها: "كان يؤمن أن الموت لا يجب أن يصنع مزيداً من الأعداء، بل مزيداً من الأسباب للحياة."

بعد أشهر، سافرت في منحة إلى برشلونة. وهناك، شعرت لأول مرة أن البحر نفسه هنا كما هناك، لكن الناس مختلفون فقط لأنهم أتيج لهم أن يكونوا مختلفين دون خوف. شاركت في ورشة عن "صناعة السرد من أجل السلام"، وقرأت أول نص كتبتُه عن غزة، بصوتٍ مرتجف، لكن بتصفيق طويل.

وقفت فتاةً مغربية بعدي، وقالت:

"السلام لا يحتاج إلى معاهدات، بل إلى قصص. قصص مثل هذه، تربي أطفالاً لا يحملون البندقية."

في برشلونة، تغيّر كل شيء، لا لأن المدينة مثالية، بل لأنها أعطتني ما حرمت منه: حق الهدوء.

في أحد اللقاءات الأدبية، قالت لي كاتبة يونانية:

< "السلام ليس أن تنسى الحرب، بل أن ترفض أن تكررهما."

هنا، شعرت أنني وصلت إلى الجواب الذي كنت أبحث عنه.

السلام ليس ضعفاً، بل أقوى شكل من أشكال المقاومة.

الآن، أعود إلى غزة برسالة جديدة. لا أعدكم بأن أغيّر العالم، لكنني أعد أن أخبر كل من أصادفه:

"نحن لا نعيش في غرة فقط. نحن نولد فيها كل يوم، وعلينا أن نختار في كل مرة: أن نكون بدايةً لحكاية جديدة، أو تكرارًا
لحكاية قديمة."
وأنا، قررت أن أكون حكايةً جديدة.